

كلمات

الأخبار

www.al-akhbar.com

السبت 1 حزيران 2019 العدد 3772



سعدى يوسف في مهبط اللغة والحياة

في حقول الشعرية العربية، يجزّ بمنجله النقدي أسماء، ويمتدح أسماء أخرى، مثل عبد الأمير الحصري وسركون بولص (الشاعر العراقي الوحيد) ليرتد لاحقاً إلى الشعر الجاهلي بوصفه بوصلة ديوان العرب في غياب التجارب العميقة، «ديوان العرب ماهول، لكن أيام الجاهلية الأولى» يقول. «حفيد امرئ القيس» لا يتردد في المكاشفة بمصارحات فجّة، وفضح البذاعات الثقافية ونبذ حالات الاحتضار، ذاهباً إلى «مديح الخسارة» في تجسير الهوة نحو ما هو مشع ونادر، وما يقع في باب الخذلان، عن بلاد تعيش القهقري، وسماسة الحقبة الاستعمارية الجديدة، واندحار الذائقة الجمالية وصولاً إلى «شاعر المليون». هكذا اخترع «الشيوعي الأخير» مدوّنته الخاصة التي تشبه سفينة نوح: الغراب والهدهد فوق خشبة واحدة، من دون تزويق أو زخرفة، فضائح وفضائل، ألوان العار، وخريطة بلاد كانت ذات يوم بستاناً أو جنّة، قبل أن يجتاحها البرابرة والأوباش وصارفة الثقافة، لكنه يهتف من متراسه المضاد «إنهم ذاهبون مع أول هبة للريح، ولقد بدأ موسم العواصف». هذه الأوراق إذاً، هي حصيلة مواقف نقدية، وترجمات، وأسفار، وصورة شاعر ثمانيني بلا ألقنة أو تقية أو سقوف، في تشریح بثور الثقافة العربية من جهة، وتاريخ بهجات عابرة وسعادات روحية من جهة ثانية، يقول مختزلاً تجواله «سيرتي: مغادرات متصلة»

خليف صويلح

لا يتوقّف سعدى يوسف (1934) عن التجوال، مثل سندباد بجناحين. هذا الشاعر سليل رثالة وجغرافيين وعشاق، يستكشف الضوء في أكثر الأماكن عتمة بحواسه الخمس. يتشمّم رائحة نبتة منسية في الظل، فتهبّ الرائحة على هيئة ذكرى أو أسطورة أو بيت طين مهمل. لم يعد المنفى عقاباً دنيوياً بقدر ما هو فضاء رحب لمقاومة العزلة والشيخوخة والفقدان. كان «البلاد التي قد وُلدت بها لم تكن»، ويضيف: «لم أبدأ في اكتشاف نفسي، ومعرفة ما أريد، إلا حين صرت رثالة وحيداً»، منوهاً إلى أن «المغادرة هي الأصل، والإقامة هي المؤقت». كتابه الجديد الذي يحمل الرقم 110 أسماء «أورافي في المهبط» (دار التكوين — دمشق). مزيج من يوميات ومواقف وأفكار، في أطلس مدن وأنهار وبشر، وإذا بالبصرة تقوده إلى بغداد، ودمشق، وبيروت، والجزائر، وعدن، ولندن، وحتى الصين. غرف فنادق، ومحطات قطارات، وجزر نائية ومجهولة. احتفال بحياة يقودها مركب سكران بلا مجداف. ابن بطوطة آخر، لكن بأسئلة مختلفة، وحيرة وجودية واحتدامات فكرية، وقبل ذلك، هو المشاء

سرد

قصتان

أسماء قبيصة عواد*

قصفة بيغونيا

لا أحد يختار طواعية أن يقطن في ذلك الحي المكتظ خارج نافذتها، ومكتظ هنا تعني حقاً أنه مكتظ؛ هناك، حتى فلذات الأكياد الصغار العائدين من مقاعد درسهـم، يحقائبيهم المتخمة، وبيطونهم الجائعة، يخفقون في عمرة زحام

المباني، في معرفة ما تمخضت عنه فريضة أمهاتهم لعداء ذلك اليوم، فحين تتداخل أبخرة قدور المطابخ في أن مصاً متراقصة بخطوات غير محترقة، تدوس في طريق عشوائها خيال أحد الجياع الصغار فيصصرح رافضاً تناول العدس فيما داعبت رائحة الملوخية أنفه، لا يحتاج الأمر للكثير من

الإنصات لسماع نهنجاته حتى من وراء زجاجها المغلق، بعدما نال نصيبه مرتين وبقي جانعاً، يبكي في زاوية مكشوفة، دموعه تصطف على خده، وليس هناك من يكثر لدى جودة أو رداءة تلك الموسيقى التصويرية اليومية، المتقافرة من النوافذ ومن تحت الأبواب ومن حلوش مفاتيحها، إلى جانب نعيق ثلاثة من ذكور الغربان، وجلبة عصافير الدوري الأبدية. في كل ظهيرة، تدرك أنها لا تنتظر أبداً، فصاحب الشخبير الذي بشوش على صوت مذيعة النشرة الجوية، تقاعد مؤخراً وانضم لعفش بيت متواضع يخلو من آثار شغب الطفولة، كل ما يرسم على الجدران عري بيبدو مقصوداً، بيعث عنواً وحيداً مفاده أن لا ماضٍ

استوطن هذه البقعة؛ وكان هذا ما كانت تربيته طوال الوقت: طمس تفاصيلها بعناية مفرطة حتى بات من الصعب التقاط علامة فارقة لها! زئبركات سريرها تمددت ببلادة عناقهما الحميم، عندما استلقيا لم يعد في مرعى نظرها سوى خزائنة بلا أبواب، للحلقة أحست يمتلى بمجموعات اللعب التي سرعان ما تحولت لدوري محترفي كرة القدم في الحواري، صخبهم وهم يشتمون بعضهم ويحتفلون بشقتها، ارتجت تلك الرعشة التي سرت في جسدها الهرم وتذكرت أنها لم يتبع فوطاً صحية منذ فترة، تملكته رغبة بان تكون مستلقية مكان تلك الجارة؛

– ألم تكبري؟ ما زحت نفسها آنصب الجار أمامها بصد عار، أترأه سمعها؟! أغلق الستارة فالنافذة، تنهدت وعادت لواقعها تسوق أقدامها

وشيء ما يرفض الخيبة ذات الإرث القديم من أن تلوح على جنباتها. على دكة الأريكة القريبة من الباب، تحت ساعة تخبض ولا تتحرك عقاربها، تكومت بصمت، تحاول تخليص بقايا الخسة من بين أسنانها بطرف لسانها، فبسيل لعابها غزيراً، دمهـا يغلي وأنفاسها تخرج حارة، الملمت طرف نوبها من فوق ركبتيها في كف يسرى تخلو من أي خاتم، هي أطفال يداعبون الحد الفاصل بين يداعبون أجسادهم، تشعر نفسها غريبة عن الجبهتين ومنصهرة بهما في أن!

كل طرف في هذه التوليفة هو سبب للأخر ونتيجة له، يلتقي الكبار فيتجوبون أطفالاً يخرجون للشارع ليلاعبوا، مفسحين المجال للكبار

كلمات

كلمات

لللقاء أحر، فينجبون ثانية وهكذا واليك، كيف لها أن تكون جزءاً في هذه الحلقة مع زوج متهدل الرجولة مذ عرفته لأول مرة على فراش وهو

في منتصف العشرينات؟ تغلب وجهها في كل الاتجاهات وتحاول تخليص بقايا الخسة من بين أسنانها بطرف لسانها، وتفشل، الشعر الكثيف النابت في صدره يشعل مرجلها أكثر، عادت لتسترق النظر من نافذة مطبخها مخفية وجهها بساجدة وراء قصفة البيغونيا إياها، النافذة ما زالت مغلقة والغبرة تنهشها كضعب؛

تفرق جمع الصبية من الأرقعة عاندين لبيوتهم متعرقين ومنسخن فيما تلك النافذة مغلقة مثل قبر فرعوني. مَرّ الزوج من جانب زوية شهورتها ولم يلحظ ذلك الوجه المهور، أي خواء أفاض به على حياتها؟

يقضي حاجته واقفاً دون أن يغلق باب الحمام، ظهره ضئيل وقوس نصره منخفض يتناسب مع بطولته التي لم تحدث كانت تشغلها العاطفة بعد أن أدركتها هيات «سن الأسـل» كما تصر على تسميته الممرضة في المركز الصحي، ولكن أن يجوع جسدها بعد أن حسبته قد تحطت فذلك ما أثار سخطها وأجفل النوم من عيونها.

يكاد ينقضي الليل، سكبنة يشوبها زيق طفل تسكته حلمة أمه، وخفافيش تحلق من مسافة قريبة تفرغ شباناً يدخلون تبغاً رديئاً، يفرعون ثم يضحكون. قلقة، تنظر للشارع الفارغ حيث مواء الققط أخذ بالتصاعد شيئاً فشيئاً، يحترق قطان على أنثى تفرش الرصيف محركة ذيلها، كل ذكر يتمرس في زاوية مستعرضاً، يبدأ النزول الذي ينتهي سريعاً، فيعتلي الغائـن منصبة تنويجه غارزاً فكبه في رقبتهـا، تحدق بهما بعيون واسعة وتتحسس رقبتهـا هي أيضاً، وتنتفض كلما غرز نفسه عميقاً في جسد مستسلم، تأخذها الرغبة لمطيخها فتجد أن النافذة المغلقة قد فتحت وضوء خافت ينبعث منها، تعود لتخطف نظرة على الققط، الفارس في مكانه عالياً، مرة أخرى تهرول للمطيخ لا ترى أحداً، باتت على يقين أنه ينام الآن في حضنها وربما يعتليها، الغيرة تحكم قبضتها عليها، يتضاعف نبضها، تغرز أظافرها بوجهها، تدخل لغرفتها وتعتري أمام المرأة، تهدأ قليلاً وهي تتحسس ثديها الأيسر متكوراً خميلاً، على يمينه فراغ تعلوه ندبة، وإلى الأسفل منه بطن متجدد بعض الشيء، تشده بكلتا يديها فيفضح عن ندبة أخرى.

ترمق زوجها بنظرة حقد وتبصق فينتشر الرذاذ على نصف صدرها، تغض عينيها وتحلم بذلك الجار يحدثها هامساً، فيسترسل عسلها من بين رجليها وتشعر بنعاس يحملها وحيدة ليتمت غطاء رتيب لا حضن يحويها كقصفة البيغونيا في مطبخها.

وصفة

في تلك المرة اصطادتنى كف خالتي نظمية؛ أصابها البرادة وخشبن جلدتها كأنها فحوى تحذيرها لي قبيل أن تلمسني، لم تنتظر رد فعلي وبدت يتمرجح عرزي ظهري الذي اقتشعر كزغلول أجرد.

غسلت كفيها وبتناقل جففتها بطرف منديلها المعقود لخلف رأسها، أغرقت سبابتها بصحن الزيت ثم ما لبثت أن أدخلتها إلى فمها مدلكة مكان أسنانها، بلعت عدة أيام وهي تضحك كاشفة عن لثتها الصلعاء اللامعة.

أمضيت مساء ذلك النهار بتفحص نفسي، في الحقيقة، لم تكن الجروح غائرة كما كنت أشعر بها كلما لامسها قميصي، تحسست سطح ما اعتقدته خنادق، ومراراً قارنت بينه وبين انعكاس صورته على المرآة، وكان لا شيء، مجرد خدوش بسيطة؛ هل أصدق إحساسي أم أصدق وجه المرأة البارد وقلبيها الأجوף؟

مرة أخرى في الموعد البيولوجي المحدد يسحبني الدرج الإسمنتي الطويل لذات الكف؛ لقد سعدت للأسفل!

مع كل درجة اهبطها، كانت روحي تنتزع نفسها مني بعد فشلها بتفادي هذه الزيارة الاستشارية، فأكشاف أسي الذائبة سدت أفق الطريق خلقي، وما من مفر إلا الصعود للأسفل.

على الضفة الترابية يساري، جدائل «حصى البان» تنثر بوح زيتها في ركن الشمس ساعة العصر؛ كنت قد وصلت لقعر الدرج عندما مدت يدي وصافحت جدبلة عطرية دون أن ابترها، تذوقت أصابعي فتجدت ملامحي من الحرارة ومن هول الطعم، هل أخبركم أحد قبلاً أن بوح الزيت مر والشفاء طريقه سر؟ أما أنا فقد أفهمتنى هذه الحقيقة خطوات الكف الخشنة الباردة على ظهري في زيارتي الماضية، استلقيت على الأرض؛ كما لو كنت على دكة غسل الموتى؛ هبطت بجانبني مرتدية قميصاً طنانياً مزكناً ثبتت أزراره بخيط غليظ كصوتها وهي تطلب مني ألا أخجل منها؛ كيف أخجل والمقام مقام الم؟!

حسرت بطبني وكأنها تبحت عن مفقود، وبسبابتها، التي تستخدمها في كل شيء، ضغلت على صرّتي فصرخت، نهرتني وعدت لدكتي ابتلع دموع متحجرة. الوصفات الطبيعية، وبركة القديم، وتوصية زيارة الطبيبة الروسية، خلاصة فحصي الشعبي الذي يرمي لتعمير بطني بطفل؛ إذن، علي أن اتبع التعليمات بدقة قبل زيارة تلك الطبيبة الروسية، التي تعتقد عجائز حيناً أنها أفخم طبيعية عرفتها البشرية، فهكذا أوحث لهن شهادتها بالطب العام المتعلقة على حائط عيادتها الرتيبة في المجمع الذي يقبع فوق سوق الخضار والفواكه؛

أدخل لمخذي منهكة من الفحص، ومرارة حصى البان تلتصق بباطن كفي كوشم أبدي؛ هذا سريري المزروح الذي أحتمل يمناه فيما شطره الآخر مهجور، هذه الشماعة، هناك النافذة تكسوها ستارة متواضعة ولكنها نظيفة، الخزائنة وقورة، أفتح بابها بروية لأعلق ملابسي، أمد يدي لأتأكد من الركن الخاص بقمصانه فيرد على صدى

الفراغ، يفرصني الألم في صرّتي ويقرع في رأسي صوتي المختنق بسالتي؛ هل هناك حاجة لوصفة خالتي نظمية، بعد سنوات ثلاث جاورتني بها في الحجرة الأخرى؟ * عمان/ الأردن

قصائد

دُعَابَاتٌ سُودَاءُ

عدائات محسنت *

هجاه الذات:
كل هذا العدد من الموتى
وما زلت قادراً على تناول
ثلاث وجبات في اليوم
بدم بارد
وباعصاب تتطاير منها النيران.

لي أصدقاء
ماتوا في ساحة الحرب
لي أصدقاء
ماتوا في غرف التعذيب
ولي أصدقاء ماتوا
ولا أحد يعرف كيف.

دوماً
يأتي القطار في موعد
حتى الانتظار
لم يعد ممكناً في هذه البلاد.

رغم أن القافلة
قد توقفت عن المسير
منذ فترة طويلة
لكن الكلاب
ما زالت تنبح بحماس منقطع النظير
حتى في أوقات فراغها.

هكذا كانت المعادلات منذ الأزل:

- من لا يغضب من الرجال
لا يعرف المتعة
- ومن لا تعرف المتعة من النساء
لا تعرف الخجل.
- من لا خصوم له
مثل النبي لا أصدقاء لديه
الأول ينأى مثل خروف
والثاني مثل ذئب
- لا حاجة للثنين إلى أقراص منومة.
- من فرط اللدغ
كي يبقى الواحد منهم مؤمناً
هو في أمن الحاجة
إلى أكثر من جحرين.
- لا فرق بين امرأة وامرأة
ولا بين رجل ورجل
ولا بين رجل وامرأة
إلا في القدرة على الطاعة
والاستعداد للصبيان.
- نحن واحد من اثنين
إما رجل
فشل في أن يكون أباً ناجحاً
أو رجل
نجح في أن يكون ابناً فاشلاً.
- خلقنا الله
أو صنعنا الطبيعة
كي نتجح أطفالاً
ليكونوا أسبداً علينا
وعبيداً لمن يحثون.
- الحلم الوحيد
الذي يستطيع الواحد منّا تحقيقه
هو أن يكون عاطلاً عن الأمل.

من أجل بنت واحدة
أنسى جميع البنات
وأول ما أنساه
بنات أفكاري.

الموتُ عادة شائعة
أموتُ من الحب
أموتُ من الملل

أموتُ من الانتظار
وعندما أكف عن الموت
سأقدم إلى مجلس الشعراء
نسخة من استقالتي.

يا أبا فرات:
«أتعلم أنت أم لا تعلم»
أنا نستورد الكزات
والمعدنوس
واللهانة
والقرنبيط

وشنخت الدماء في عروق أطفالنا
فقرر أصحاب الشأن
أن يستوردوا دماء تكون أوفاهم
لضحايا السنوات المقبلة
كي يجبروا بخاطرك
من جهة



الرسمّة
ليحيى الشيخ
(المرافق، زيت، على ورق)

كيف فعل بأصحابي
■ ■ ■

أنا صانع المعجزات
لم أمش أبداً على ماء
لكن
من فرط هزائمي
سقطت على الأرض
مزهرية البيت من تلقاء نفسها
ومن فرط ما يتسع القلب
صرت أحقق على ظهره
جميع ما لم أكتب
من قصائدي
وأخر معجزاتي
ذهبت هذا الصباح
إلى مقبرة الأصدقاء
ولم أتعرف في مشيتي
إلا مرة واحدة.

ترستان تزارا
صديقي العزيز!
سبب لك أن علمتنا
كيف نكتب قصيدة دائنية
وها أنا الآن بدوري
ساعلمك كيف تحطّ شاعراً
بسهولة بالغه

خذ قليلاً من المجاز والكثير من الصفات
وكلّ ما يروق لك من الاستعارات
وبنفس المقادير من المضاف والمضاف إليه
مثل

بريد البرق
منزل الدم
أيادي الريح
بئر القلب
سفينة النوم
باخرة الليل. الخ الخ

أخلط الجميع حسب الاتفاق
أطلق رصاصة الرحمة على المعنى
بعد أكثر من مجلد أو مجلدين
من الأعمال الكاملة
ها أنت أمام مومياء ناطقة
حاضرة في جميع المناسبات.

سابقاً كان البكاء نادراً
حينئذ
دخلت كلمة دموع
كل القواميس الشعرية
واليوم

الكل يبكي لسبب أو
بدون سبب
فخرجت الدموع من الشعر
بأصحاب الفيل

لم أر كيف فعل ريك
بأصحاب الفيل
وخرج هو الآخر عليها.

فلسفة

جاستن سميث: انتصار العقلانية محتمل!

«اللاعقلانية: تاريخ جانب العقلانية المظلم» (يوب 2019) لجاستن سميث مؤلف فلسفي يبحث في مسألة العقلانية واللاعقلانية. مؤلف الكتاب الفرنسي هو أستاذ التاريخ وفلسفة العلوم في «جامعة باريس ٧». في تمهيدهِ للعمل، يروي الكاتب قصة أو لنقل أسطورة – كما يرى هو – عن الفيلسوف والكاتب والشاعر الأثيني هيبياس الذي كان من أتباع المدرسة الفيثاغورية، التي تعد في الوقت نفسه أخوية. تقول الرواية/الأسطورة إن أتباعه أخذوا قتلوه لأنه أفضى أهم أسرارهم لمن هم ليسوا منها. كتب هيبياس: «لا يمكن بناء العالم من أرقام. إذا كان العالم مبنياً على أرقام، فكيف يمكن أن يكون الرقم ما يميز اكتشافه الطائفة أخيراً من قطري مربع؛ إنه غير قابل للتوافق مع جانب المربع. إذا حاول المرء حسابه، سينتهي الأمر به إلى سلسلة عشرية ليس لها نهاية طبيعية. ذلك ليس ممكناً، إذا لم تكن هناك حقيقة محددة حول هذا الرقم، فكيف يمكن أن يكون الرقم ما يميز شيئاً معيّنًا في العالم؟ لا ، هذا خطأ. إنه غير منطقي».

قضية هيبياس - حسب قول يابوس - هي في ظن الكاتب مجرد حالة أخرى في هذا الزمن الطويل والمتكرر للتاريخ، لكن هناك أيضاً شيء مميز حوله. الاكتشافات التي أعطتنا أسلحة نووية لم تكشف عن أي شيء غير منطقي حول كيفية عمل العالم. لقد أدركنا بالفعل أن العالم يتكون من العديد من الأشياء التي تكون شديدة الحرارة أو شديدة البرودة أو شديدة التآكل أو منقطعة عندما تكون متوافقة مع حياة الإنسان. لقد اتاحت لنا هذه الاكتشافات المزيد من الفحص لتكون شيريرين تجاه بعضها بعضاً، بل حتى على نطاق

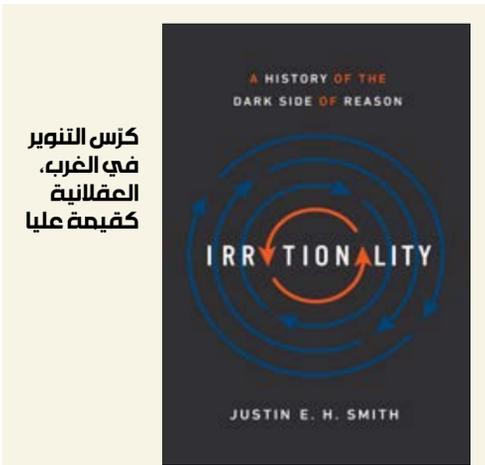
مذكرات

لودميلا بفلتشنكو... القناصة الحمراء

كتاب «أنا قناصة في معارك دفاعاً عن سفسنبول وأوديسا» (عنوان النسخة الروسية) الذي صدر بالإنجليزية عن «غرينهيل بوكس» بعنوان آخر، اخترنا عرضه في ذكرى مرور يوم النصر على النازية والفاشية، أي يوم استسلام ألمانيا النازية رسمياً لقوات التحالف الواقع في التاسع من شهر أيار (مايو) 1945. إن أن القيادة النازية كانت قد استسلمت للقوات الأميركية في نهاية شهر نيسان (أبريل) من العام نفسه، لكن موسكو احتجت على ذلك لأن الاتفاق بينها وبين واشنطن كان على أن الاستسلام يتم لقيادتي الطرفين العسكريين. اختيار هذا المؤلف المثير لهو اعتراف بالدور المهم الذي مارسه الاتحاد السوفييتي دفاعاً عنّا حيث سقط له ضحايا كثر في معارك التصدي

لإعدادة العدو الصهيوني، ولا ننسى أيضاً دوره في الدفاع عن سوريا في وجه الإرهاب النافوي والإرهاب الإسلامي-التكفيري.

لا شك في أن تاريخ الحرب العالمية الثانية ما زال مقلّلاً بأسرار كثيرة منها ما كشف أخيراً عن لن لندن وباريس كانتا جندتي لمهاجمة مراكز استخراج البترول في باكو التي كانت وقتها ضمن حدود الاتحاد السوفيتي، وكانت تمت ألمانيا بما تحتاج إليه من النفط وفق رأي سادة بريطانيا وفرنسا. لقد فقد الاتحاد السوفييتي نحو سبعين مليون ضحية في الحرب وخسائر مادية لا حصر لها. على سبيل المثال، فقد نحو مليون جندي في معركة ستالينغراد



المقررة له، والموسيقى عندما تنفصل عن الملاحظات على الورقة وتأخذ حياة خاصة بها. إنها تشمل الجزء الأكبر من حياة الإنسان، وربما تحكم معظم فترات تاريخ البشرية، وربما تسود دائماً، في حين أن الفترات التاريخية التي يقع فيها البشر أنفسهم بأنهم نجحوا في إبقائها في مازق، قليلة ومتباعدة.

أي انتصار للعقلانية هو مؤقت وقابل للقلب، أي جهد طوباوي لتنظيم الأمور تنظيمياً دائماً من أجل القضاء على التطرف وتأمين حياة هادئة مرجحة للجميع داخل مجتمع مستنى على مبادئ عقلانية، محكوم عليه بالفشل منذ البداية. إذ تكمن المشكلة في

كلمات

إعداد **زياد منته**

غالباً ما قاد إلى انفجار اللاعقلانية. إنها قصة لا يمكننا التوقف عن الحديث فيها. الإغريق، كما يُقال، اخترعوا العقلانية. وفي وقت لاحق، كرس التنوير في الغرب، العقلانية كقيمة عليا وإطلقنا على أنفسنا مصطلح الحيوان العقلاني. لكن هل هذه القصة المذهلة بحد ذاتها عقلانية؟

في هذا الحساب الشامل للعقلانية من العصور القديمة وحتى اليوم - من مقتل هيبياس في القرن الخامس قبل الميلاد لكشفه عن وجود أرقام غير عقلانية إلى صعود الغوغاء على تويتر وانتخاب دونالد ترامب، يقول جيبستين سميث إن الأداة تشير إلى عكس ذلك. من الجنس والموسيقى إلى الدين والحرب، تشكل اللاعقلانية الجزء الأكبر من حياة الإنسان وتاريخه. اللاعقلانية تتراوح بين الفلسفة والسياسة والأحداث الجارية. في تحدّ للتفكير التقليدي حول المنطق، والعقل الطبيعي، والأحلام، والفن والعلوم، والعلوم الزائفة، والتنوير، والإنترنت، والنكات والإكاذيب، والموت، وهي مواد فصول المؤلف التسعة، يوضح الكتاب كيف يكشف التاريخ أن أي انتصار للعقل مؤقت وقابل للقلب، وأن المخططات المنطقية، بما في ذلك العديد من وادي السيليكون، غالباً ما تؤدي إلى عكس العكس. يبدو أنه كلما كافحنا أكثر من أجل العقلانية، انتهينا إلى اللاعقلانية. بولد اللاعقلاني والعكس بالعكس في دورة لا نهائية، وأي جهد لوضع الأمور على نحو دائم ينتهي عاجلاً أو آجلاً في انفجار غير منطقي. ولهذا السبب، من غير المنطقي محاولة القضاء على اللاعقلانية. إما أنها تثير اللاعقلانية للقلب، أي جهد طوباوي لتنظيم الأمور تنظيمياً دائماً من أجل القضاء على التطرف وتأمين حياة هادئة مرجحة للجميع داخل مجتمع مستنى على قاعدة القلة المستنيرة على العامة.

هذا التاريخ للسعي وراء العقلانية

كلمات

اقتصاد

باتريك جاي. دينين: لهذه الأسباب أخفق النظام الليبرالي

ثمة عدد متزايد من المفكرين يشككون في جدوى النظام الليبرالي السائد في العالم بعد هزيمة الشيوعية. وخير دليل على ذلك عدد الأعمال التي تنتقدُه وإقبال القراء الكبير عليها وكثرة المناقشات التي تجري في هذا الخصوص، بما في ذلك كتاب «لماذا أخفق النظام الليبرالي» (منشورات جامعة يال ـ 2018) باتريك جاي. دينين الذي حظي باهتمام واسع ليس بين أهل الاختصاص فحسب وإنما بين القراء عموماً. لكننا نرى الآن أن الليبرالية صموت كما حصل مع الشيوعية. الأطراف تنهار بداية مع المجر وبولندا وغيرهما في شرقي أوروبا. الأيضوح الأميركي الساطع الآن لم يعد يجذب أحداً، حتى في دول أوروبية غربية مثل ألمانيا الموحدة ترسخ فيها الخيار الليبرالي. حتى إذا صوبنا نظرتنا تجاه دول إسلامية مثل تركيا، كان يفترض بثورة أتاتورك أن تكون مثلاً لدولة ذات غالبية مسلمة وغربية وديمقراطية. اليوم هي غير الليبرالية بغض الطرف عن ديمقراطيتها، وأصبحت أقل علمانية وأكثر عصبية من ذي قبل وأقل توجهها نحو الغرب.

لا شك في أن النظام الليبرالي حقق نجاحات مهمة للبشرية، لكنه أخفق في أمور أساس وجوهريّة مثل المساواة، حيث نرى التفاوت الهائل في الدخل والشروات بين أقلية ضئيلة للغاية وأغلبية ساحقة. النظام الليبرالي هو الذي سبب نجاح البهض في تكديس الثروات على سبيل المثال، لكن أسباب إخفاقاته تكمن في نجاحه، أي أن هذا النظام حمل في داخله أسباب نجاحاته ومن ثم زواله الحتمي. نحن نعلم أن هزيمة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي أثارَت موجة حماس بين بعض المفكرين في الغرب الذي ظنوا أن الرأسمالية هي النهاية الحتمية للبشرية، مغفلين حقيقة التقنيات التي جعلنانا وحيدين مثل

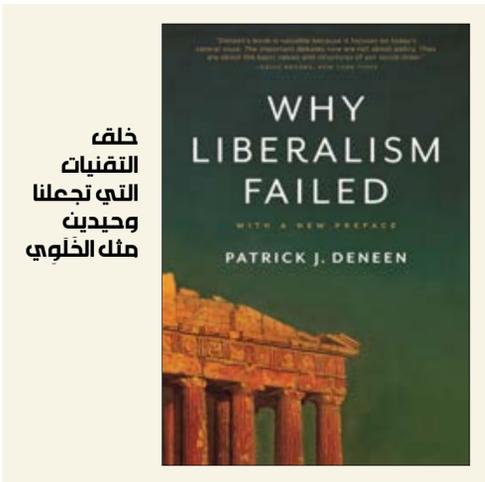
سيرة

لينا هوخينا: يوهيات لينينغراد المحاصرة

«مذكرات لينا موخينا: حياتي في مدينة لينينغراد المحاصرة» مؤلف آخر أردنا عرضه هنا لأن كاتبته، وهي مواطنة سوفيتية من مدينة فوجنت بكيفية تعاطي الأميركيين مع الحرب، ونهلت لسخافة أسئلة الصحافيين الأميركيين. فمن الأسئلة التي طرحت عليها أي مكياج تستعمل وطول ثوبتها وما إذا كانت تستحم على الجبهة وحتى ما لون ملابسها الداخلية، مما دفعها لتشبيهم بالقوات النازية المهاجمة التي كانت تسعى إلى إرهاب العدو. كما رفضت باحتقار عرض شرط تصنيع سجاير أميركية لوضع صورتها على غلب السجائر مقابل نصف مليون دولار. ولا يمكن نسيان مواجهةها الفظيعة الأولى مع سيدة البيت الأبيض إلينور روزفلت، ما اضطر الأخيرة لغادرة طاولة الطعام.

النواضع لم يكن ينقصها. فعندما هناها قائد الجبهة في سفسنبول على أصاباتها الكثيرة في صفوف العدو، أجابت إنهم «كان يهجمون بناعداد كثيرة حتى صار من غير الممكن إخطاء الهدف. لقد تعرضت لورميلا لجراح كثيرة، جسدية ونفسية، لكنها عاشت لتكتب مذكراتها الثمينة قبل وفاتها عام 1974 عن عمر 58 عاماً.

* I am a sniper: In Battles for Sevastopol and Odessa. greenhill Books 2015/ 2018. translation from russian: Alla Igorevna Begunova. 216 pp with many illustrations



الخُلوي وهي تخلق مؤسسات تفردنا. فتقافة الربط وإيمان الوتائف المحمولة، أي الخُلوي من علامات الإنهيار الحضاري، لأن الليبرالية تجعل من الأفراد منفصلين ومستقلين ووحيدين ولا علاقة للفرد بالعلاقات. وفي المدارس يتم استبدال الفوضى الواسعة النطاق والغش بقواعد الخواضع والرفاه والصدق التعليمي. كما إننا نواجه ضعفاً سياسياً والانخراط في إجبارنا على اختيارات لا تمثل في جوهرها سوى العبودية. في الوقت نفسه، الكاتب يرى أن الليبرالية فلسفة سياسية تم إطلاقها

شعوباً بكتير». وهو يرى أيضاً أن أهم عواقب الليبرالية سلبية، إذ إنها تخلق عدم المساواة الهائلة، وتفرض الانساق

السبت 1 حزيران 2019 العدد 3772
الأخبار

اقتصاد

باتريك جاي. دينين: لهذه الأسباب أخفق النظام الليبرالي

1826) وجون ديوي (John Dewey، 1859- 1952) وغيرهم، قادت إلى قيام السوق الحرة، والأحلام المركزية الكبيرة للعمل معا لتحرير الأفراد من بعضهم، بما حتى تحريرهم من طبيعتهم الخاصة، بما قاد بدوره إلى فقدان الفضيلة وإشاعة القلق الدائم خاصة بالعلاقة مع التكنولوجيا، وكذلك الشعور بالعجز والتغرب تجاه حكم الذات، وسلسلة من الكوارث المالية والبيئية والوشيقة. يوضح الكاتب في عمله أنه لا يريد بقاء الليبرالية، لكن من دون تقديم بديل. مع ذلك، فقد نجح هذا الكتاب في الحصول على عروض ومراجعات كثيرة، من كتاب تقديميين ومفكرين محافظين، وهذا أمر يدعو للدهشة. أخذين في الاعتبار أن الكتاب مسجى كاثوليكي محافظ، وناقد لإفكار اليمين الأميركي بما في ذلك الاقتصاد الرأسمالي. لقد نجح الكاتب في اجتذاب اهتمامات الطرفين اليميني والتقدمي لأنه يهاجم الرأسمالية والثقافة اليسارية. النقطة الأخيرة هي قول الكاتب إن حقوق اليوم واسع لقائد قوي ذي إرادة لاستعادة السيطرة الشعبية على أشكال الليبرالية للحكومة البروقراطية

والاقتصاد الممول، يأتي بعد عقود من التحكك الليبرالي للمعايير الثقافية والعدادات السياسية الضرورية للحكم الذاتي. التحرير الاقتصادي الذي لا يرحم، ترك كثيراً من الناس غير أميين مادياً، والتحرير الثقافي الذي لا هودة فيه جعلهم في وضع غير مستقر، والعلاقات المحلية (communal) يتم التخلي عنها لتشجيع قوة عاملة متنقلة، والخربة تصعب شيئاً للحكومة القوية على نحو متزايد، فإما أن تمنحها أو تحجبها.

* Why Liberalism Failed (Politics and Culture) by Patrick J. Deneen - Yale University Press - 2018



لينا كتبت أن السكان اضطروا لأكل الورق المقوى مع الغراء الذي يستعمله التجارون، ثم اضطرت لأكل قطنها لتفادي التضور. وتلاحظ أن القطن الملون خفت من المدينة، بينما خُكي أيضاً عن حالات أكل لحم الأموات من البشر. عاشت لينا لتشهد وفاة والدتها وخالتها وصديقة لها كانت

125 غراماً من الخبز يومياً). تعليقات مماثلة كانت نادرة في اليوميات، لكن

بؤس حالة الأحياء مميت حيث في أحد الأيام، كتبت أن السكان صعباً من الجوع

بالجنون جراء قصف قوات الحصار النازية المكثف الذي طال حتى مخازن الحبوب والطعام والمطابخ الجماعية ومراكز توليد الطاقة الكهربائية.

لينا كتبت أن السكان اضطروا لأكل الورق المقوى مع الغراء الذي يستعمله التجارون، ثم اضطرت لأكل قطنها لتفادي التضور. وتلاحظ أن القطن الملون خفت من المدينة، بينما خُكي أيضاً عن حالات أكل لحم الأموات من البشر. عاشت لينا لتشهد وفاة والدتها وخالتها وصديقة لها كانت

* The Diary of Lena Mukhina: A Girl's Life in the Siege of Leningrad Hardcover by Lena Mukhina (Author), Amanda Love Darragh (Translator) Pan Macmillan2016.

أوراق

بيع السرار

البيعير بما في بطن الناقة؛ وقد أمجّر في البيع ومأجّر مأمجراً ومجّراً. الجوهري: والمجّر أن يباع الشيء بما في بطن هذه الناقة. وفي الحديث: أنه نهى عن المجّر ... وكان من بياعات الجاهلية» (لسان العرب). وقد ربط البيعان عبر مثل أو قول شهير: «كُلُّ مُجَّرٍ بِالْخَلَاءِ مُسَرٌّ».

وقد فهم هذا القول خطأ في اعتقادي. إذ ظن كلمة «مسر» هنا تعني السرور: «كل مجر في الخلاء مسرّ، ولم يقولوا مسرور. وكل صواب» (الديان والتبيين). وفي العقد الفريد، حولت «مسر» إلى «يسر» انطلاقاً من هذا الفهم: «كل مجر بالخلاء بسرّ. وأصله: الذي يجري فرسه في المكان الخالي فهو بسر بما يرى منه» (العقد الفريد). والحقيقة أن الأمر لا يتعلق بالسرور ولا بالخيال

وجريانها، بل بواحد من بيوع الجاهلية هو «بيع السرار». فالمجر هنا هو «بيع المجر»، بالتالي فالمثل يقول: كل بيع مجر هو بيع مقامرة. أي أن «المسّر» هنا، بكسر الميم لا ضمها، هو السرار ذاته. وهو بيع «مسّر» أي بيع مقامرة. عليه، فالمثل يقول إن بيع الأولاد في أرحام الدواب مقامرة مثله مثل بيع السرار. وبيع الموالي في أرحام الأنعام يجري عادة في الخلاء، أو بعيداً في مبارك الإبل ومعاطنها. ولعل اسم لعبة «الميسر» العربية القديمة من هذا المعنى، أي معنى المقامرة: «والمجّر الرّبا. والمجّر القمّاز» (لسان العرب). ويبدو لي أن ابن سيده شك في صحة الفهم السائد للمثل: «كُلُّ مُجَّرٍ بِالْخَلَاءِ مُسَرٌّ؛ قال ابن سيده: هكذا حكاه أفاضل لقيط إنما جاء على توهم أسرّ» (لسان العرب). كما أن اسم «السريّة»، أي الجارية، ربما جاء من هنا. ذلك أن السارري كن في الأصل أسلاب حرب. وفي الحروب، فإن السلب شركة. لذا كانت النساء الأسيرات يبعن كجوار «بيع سرار» من قبل الشركاء في ما يبدو.

ومن المحتمل أن السرار والمسر في الأصل من معنى الاستسار، أي الخفاء. فالعرب تسمي آخر ليلة في الشهر، وهي التي يستسّر فيها القمر، أي يغيب غيباً كاملاً، باسم ليلة السرار: «فإنها تسمى السرار» لاستسار القمر فيها، وتسمى «الفحمة» أيضاً لعدم الضوء فيها، ويقال لها البراء، وكأخر يوم من الشهر، فإنهم يسمونه النحر، وكالليلة الثالثة عشرة، فإنها تسمى السواء، والرابعة عشرة ليلة البدر». (جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام). إذا صح هذا، فإن بيع السرار هو بيع الخفاء والإعتماد وعدم الوضوح. فالشاري لا يعرف طبيعة السلعة التي يشتريها، كما هو الحال مع يوسف. فهم لا يعرفون من هو، ولا من القاه في البئر.

إذن، فتقديري أن يوسف بيع سرار. لكن لم يدرك ذلك من تحدثوا عن بيعه مع أنهم جميعاً يعرفون بيع السرار، ومع أن بعضهم تحدث في السياق عن هذا البيع؛ والجواب: هو أنهم ظلوا مقتنعين بأن يوسف بيع مرة واحدة، في حين أنه بيع في الحقيقة مرتين. في المرة الأولى بيع سراراً، أو مسرة، و«بئس بئس دراهم معدودة». وفي المرة الثانية لم يبع بخساً، فقد كان من اشتراه يقدر قيمته كما يبدو من الآية بوضوح: «وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً». فمن يريد ولداً لا يبخر هذا الولد قيمته. بالتالي، فبيع يوسف في مصر كان بيعاً عادياً، وليس بيع سرار. وفي كل حال، فإن يوسف والبئر والسيارة والفرعون وكل عناصر القصة حقائق دينية لا علاقة لها بالحقائق التاريخية.

* شاعر فلسطيني

ولا من ضروب العبث واللهو واختبار الحظوظ» (عرفان حمور، مواسم العرب الكبرى، ص 843-844).

وأنا أختلف بشدة مع حمور هنا، وأجد أنه ليس من السهل أبداً التشكيك في مصداقية ابن حبيب أخبر الخبراء في الجاهلية. فوق ذلك، فهناك حديث مشهور ينهى عن بيع السرار: «ياكم وبيع السرار». ولم يكن الرسول لينهى عن هذا البيع لو لم يكن شائعاً. والحق أن نفي بيع السرار سيمنعنا من فهم آيات سورة يوسف التي أوردناها أعلاه. ومشكلة عرفان أنه فهم أن الجملة تتحدث فقط عن طراز واحد من البيع في عكاظ هو «بيع السرار». والحقيقة أن جملة «وكان يبيعهم السرار» لا تعني أنه يبيعهم الوحيد، بل أنه واحد من بيوعهم.

يريد ولا يريد

على كل حال، فإن ما زاد أمر «بيع السرار» غموضاً وإبهاماً إنما هو الجملة المركزية في نص ابن حبيب: «يريد الشراء ولا يريد». وهي جملة شديدة الغموض كما نرى. فما معنى أنه يريد الشراء ولا يريد في اللحظة عينها؟ والغريب أن هذه الجملة تنقل عند الجميع من دون شرح أو توضيح. بل بتظاهر من يبدو أنه يفهم الجملة وأنها ولا تشكل مشكلة بالنسبة لهم، مع أنها شديدة الغموض كما نرى. ومن الواضح أن الخطوة الأولى لفهم «بيع السرار» تبدأ بفهم هذه الجملة وجلاؤها أولاً.

ولجلائها أقترح أن كلمة «يريد» الأولى مصحفة، وأنها في الأصل بالزاي لا بالراء (يزيد). أما «الإلف» فمن الإلفة والمصاحبة، وهي تعني هنا الصاحب المشارك. بدأ فالجملة تقول: فإذا حل وقت البيع، وكان عند التاجر مؤالف يزيد في سعر الشراء، لكنه لا يريد الشراء حقيقة، وعده الذي سيشتري السلعة بأنه سيشاركه في الربح لاحقاً، حتى يخلص من مزايده التي تزيد من سعر السلعة عليه. أي يغيره بوقف المزايدة عبر تقاسم الربح معه عند بيعه للسلعة لاحقاً. هذا هو المعنى بالتحديد.

لكنني أعتقد، وانطلاقاً من قصة بيع يوسف، أن بيع السرار ليس بالضبط كما يقول ابن حبيب. فالسرار يوجب، في ما يبدو لي، أن يكون «الإلف» شريكاً في السلعة المعروضة للبيع. وإذا كان ابن حبيب يقصد بالإلف الشريك، فهو يوافق ما أدعيه. بدأ يجب أن يكون هناك شركاء في السلعة التي تباع «بيع السرار». واحد من هؤلاء الشركاء يريد أن يشتري السلعة، أي أن يشتري حصة الآخر عملياً. لكن الآخر يتظاهر بأنه هو الآخر يريد أن يشتري. فإذا قال الأول: «أشتري السلعة بعشرة دراهم، قال الثاني: لا، أنا أشتريها بعشرين درهماً. وهو لا يريد أن يشتري في الواقع، لكنه يفعل فعل «مزايده» حتى يكسب أكثر من الأول. عليه، فهناك سلعة مشتركة بين طرفين، والمطروح أن يشتريها أحد منهما. وكل واحد يطرح سعراً. واحد من الطرفين لا يريد أن يشتري حقاً لكنه يعلي السعر كي يرغم مقابله على دفع ثمن أعلى. هذا هو بيع السرار. بناء على ذلك، فقد اعتبر «بيع السرار» في الإسلام طرازاً من المقامرة. لذا نهى عنه الرسول في الحديث الذي أشرنا إليه: «ياكم وبيع السرار».

بيع المجر

وقد ربط بيع السرار بطراز آخر من البيوع هو «بيع المجر». والمجر هو بيع ما في بطون الأنعام وكل منواليد: «المجّر: ما في بطون الحوامل من الإبل والغنم؛ والمجّر: أن يُشترى ما في بطونها، وقيل: هو أن يشتري



«يوسف، اللبث المفضل» (منمنمات العهد القديم مع كتابة بالفارسية واللاتينية واليهودية - 390×300 مم - 1254/1244)

أخرجاً معاً أو لم يُخرَجاً جميعاً عاذاً في الإخرَج» (المطرزي، المغرب في ترتيب المغرب). وهذه الفقرة تشير في الواقع إلى أن هناك من كتب عن «بيع السرار» غير ابن حبيب، وأن المطرزي كان ينقل عنه.

ويبدو أن بعض الأجانب شارك في هذا الجدل. إذ يخبرنا الأفغاني أن أحد المستشرقين له تفسير آخر لبيع السرار: «أرسل إلي الأستاذ كرنكو المستشرق المعروف عقب صدور الطبعة الأولى، يقول: «لأرجع إلى بيع السرار في عكاظ، وأظن أن أمر البيع والشراء كان سراً لاجتماع القبائل التي بينهم عداوات ودماء في هذه السوق. وعلى هذا، تدل قصة طريف العنبري التي ذكرتموها وقد كانوا يتلثمون عند حضور السوق مخافة أن يراهم عدوهم. وهذا رأيي والله أعلم» (سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، هامش 2، ص 26). وقد عارض الأفغاني هذا الرأي، ومعه حق في ذلك.

انطلاقاً من كل هذا، فقد نفى عرفان حمور وجود هذا البيع من أصله: «وكنت ذكرت، في كلامي عن خصائص الأسواق الموسمية، أن سوقاً كسوق عكاظ، يتوجه إليها التجار من كل مكان، ويعدون لها ما استطاعوا من صنوف البعاعات... لا يمكن أن تكون البيوع فيها بطريقة واحدة مبهمة، لا هي من ضروب القمار،

”

ظلوا مقتنعين بأن يوسف، بيع مرة واحدة، في حين أنه بيع مرتين

“

«بيع السرار». بدأ فيوسف بيع في الواقع مرتين: مرة باعه من عثر عليه في البئر بثمن بخس، وثانية حين باعه من اشتراه بمصر.

بيع السرار

البيعة الأولى قرب البئر هي البيعة الأهم لأنها تفتح لنا باع فهم واحد من بيوع الجاهلية الغامضة: «بيع السرار». وهذا البيع مختلف حول طبيعته في المصادر العربية. وليس لدينا من المصادر القديمة سوى فقرة واحدة من ابن حبيب. والجميع لنا ينقل هذه الفقرة الغامضة: «وكان يبيعهم السرار: إذا وجب البيع وعند التاجر فيها إلف ممن يريد الشراء ولا يريد، أشركه في الربح» (المحبر، ابن حبيب). فالمرزوقي يقول مثلاً: «فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريد، فله الشركة في الربح» (المرزوقي، الأزمنة والأمكنة). وهكذا فالمرزوقي غير جملة «أشركه في الربح» جملة «فله الشركة في الربح». هذا كل شيء. كما أن الدكتور جواد علي نقل الفقرة ذاتها كما جاءت: ومنها السرار: «فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريد، أشركه في الربح» (جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام). ويؤكد لنا سعيد الأفغاني أن بيع السرار لم يرد إلا عند ابن حبيب في فقرته الشهيرة: «لم أجد هذا الضرب في جميع المصادر التي بيدي، لم يذكره أحد غير محمد بن حبيب بقوله: «وكان يبيعهم (أي بعكاظ) السرار، فإذا وجب البيع وعند التاجر إلف ممن يريد الشراء ولا يريد، أشركه في الربح» (سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 26). لكن الأفغاني وجد فقرة أخرى للمطرزي المتأخر صاحب «المنقى»: «وفي المنقى: بئع السرار أن تقول أخرج بُدِي وَيَدُكَ فَإِنْ أُخْرِجْتَ خَاتَمِي قَبْلَكَ فَهُوَ بَيْعٌ كَذَا وَإِنْ أُخْرِجْتَ خَاتَمَكَ قَبْلِي فَكَيْدًا، فَإِنْ

زكريا محمد *

أثارت آيات سورة يوسف، التي تتحدث عن بيعه، اضطراباً عظيماً عند المفسرين واللغويين: «وجاءت سيارة أرسلوا واردهم فادلى دلوه قال يا بشري هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين. وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» (سورة يوسف: 19-21).

وكانت جملة «وأسروه بضاعة» هي التي سببت كل هذا الاضطراب. وقد ذهب المفسرون مذاهب في تفسير جملة: 1: أن جملة «أسروه بضاعة» تعني: أخفوا أمره وأدعوا أنهم أخذوه معهم لبيعهم كبضاعة لصالح آخرين: «يعني الوارد وأصحابه، فخافوا أن يقولوا اشتريناه فيقول الرفقة اشركونا فيه فقالوا: إن أهل الماء استبضعونا هذا الغلام» (الكامل في التاريخ). يضيف الزبيدي: «وأسروه: الضمير للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة. وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر» (الزمخشري، الكشاف).

2: لكن هناك من يقول إن الضمير في أسروه يعود على إخوة يوسف. فهم الذين أخفوا كونه أماً لهم، وقالوا: إنه عبد لنا أبق منا». بل إن هناك من يرى أن إخوة يوسف هم من باعوه، وأنهم أخفوا ذلك: «وعن ابن عباس: أن الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا» (الزمخشري، الكشاف).

3: أن كلمة أسروه تعني ختموه: «وقوله تعالى: وأسروه بضاعة (أي ختموا في أنفسهم أن يخضلوا من تبعه بضاعة» (الزبيدي، تاج العروس). لكن الحقيقة أن «أسروه بضاعة» تعني باعوه كبضاعة. وقد جرى البيع بطريقة